البكور والعوالم الثلاثة:قراءة في عينية الحادرة

د/ غادة جميل قرني محمد يوسف

مدرس الأدب القديم

كلية دار العلوم – جامعة المنيا

(1)

الحادرة أو الحُوَيْدِرَة بالتصغير لقب لُقِّبَ به وغلب عليه واشتهر به أيضًا، واسمه: قُطْبَة بن أَوس بن مِحصَن بن جَرْوَل بن حبيب بن عبد العُزَّى بن خُزيمة بن رِزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن بَغيض بن رَيث بن غَطَفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مُضر بن نزار، وهو شاعر جاهلي مُقِل، وينسب إلى غطَفان، أو إلى ذبيان، أو إلى ثعلبة؛ فيقال له: الحادرة الغطفاني، والحادرة الذبياني، والحادرة الثَّعْلَبِي. ونسبته إلى ذبيان هي الأشهر والأغلب. وسُمِّيَ بالحادرة بقول زَبَّان بن سَيَّار الفَزاري له:

كأَنَّك حادرةُ المَنْكِبيْن رَصْعاءُ تُنْقِضُ في حائر

والحادرة: الضخم، وحادرة المنكبين: ضخمتهما، شبهه بضفدعة ممتلئة المنكبين. والحادر: الغليظ، وكل ضخم: حادر، ورمح حادر: إذا كان غليظ الكعوب[1].

ويشير "ناصر الدين الأسد" في تقديم تحقيقه لديوان الحادرة بأننا لا نعرف سنة ولادة الحادرة، "ولا سنة وفاته، شأنه في ذلك شأن شعراء الجاهلية كلهم أو

حرصًا على الاختصار، لم أذكر في الهامش إلا اسم المؤلف متبوعًا بتاريخ صدور الكتاب، ورقم الصفحة، وإذا كان لمؤلف واحد كتابان صدرا فى تاريخ نشر مشترك، فإننا نعطى الأول منهما رقم (1) والثاني رقم (2) تأتى بعد تاريخ النشر؛ أما عنوان الكتاب ومكان صدوره سيجده القارئ مفصلًا في الببليوجرافيا الخاصة بالمصادر والمراجع المثبتة في نهاية الدراسة.

[1] راجع ترجمة الحادرة ونسبه في:

- الأصفهاني ،أبو الفرج علي بن الحسين(2008)، المجلد الثالث، ص 190-193.
- اليزيدي ،أبو عبد الله محمد بن العباس(1969)، ص 271-274.
- ابن ميمون ،محمد بن مبارك بن محمد (1999)، المجلد السادس، ص 363.
- الأخفش الأصغر، أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل (1984)، ص 63.
- التبريزي، يحيى بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 209-210.

جُلِّهم، وأكثر ما قيل في تحديد سنواتٍ وفياتهم إنما هو ظنٌ أو استنتاج من أحداث ووقائع جرت في أيامهم. ومع ذلك فنحن نعرف أن الحادرة عاش في آخر الجاهلية القريبة من الإسلام، وربما أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم، لأننا لم نجد أحدًا ذكره من المسلمين. أما أنه عاش في أواخر الجاهلية فأمر نعرفه من الأخبار التي رُويت لنا عن الهجاء الذي لجَّ بينه وبين زَبَّان بن سَيَّار الفَزاري"[1].

والحادرة أو الحُوَيْدِرَة شاعر جاهلي مجيد من الفحول، وضعه ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء في الطبقة التاسعة من شعراء الجاهلية مع ضابئ بن الحارث وسُوَيْد بن كُرَاع العُكليّ وسُحَيْم عبد بني الحَسحاس[2]. وذكر أبو حاتم السجستاني أنه سأل الأصمعي عن جماعة من الشعراء، منهم: عمرو بن كلثوم، وأبو زُبَيْد، وعُرْوة بن الورد، وحُمَيد بن ثَوْر، وابن مُقْبِل، أفُحولٌ هم؟ وكان الأصمعي يجيب عن كل واحد منهم أنه ليس بفحل، قلت فالحويدرة قال: "لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلًا"[3]؛ وكان الأصمعي يعني عينيته. ويشير اليعقوبي في تاريخه، وفي الفصل الذي عقده تحت عنوان "شعراء العرب"، إلى الحادرة بوصفه أحد الشعراء الفحول، وهو ممن "قُدِّم شعره في جاهلية العرب على ما أجمعت عليه الرواة وأهل العلم بالشعر، وجاءت به الآثار والأخبار... فسموا الفحول، وقُدِّموا على تقدم أشعارهم في الجودة"[4]

لقد نالت عينية الحادرة تقدير القدماء وإعجابهم، حيث كانت موضع اهتمام الشراح ونَقَدة الشعر وأصحاب المعاجم، ومثلما فعل الأصمعي والمفضَّل وابن الأعرابي وابن السِّكِّيت والسُّكَّري، حين جمعوا شعر الحادرة، واختاروا قصائده وأشعاره، وقام بعضهم بشرح هذا الشعر وأقرأه وأملاه، فعل أصحاب المعاجم اللغوية

[1] اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس(1969)، ص 271–272.

[2] راجع: الجمحي، محمد بن سلام (1980)، السفر الأول، ص 171–172.

[3] الأصمعي، عبد الملك بن قُرَيْب (1980)، ص 12.

[4] اليعقوبي، أحمد بن أبو يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (2010)، المجلد الأول، ص 315.

وتمثلوا بأبيات من شعر الحادرة، في مواضع متعددة في معاجمهم، ومن ثم استخدم أبيات شعره الأزهري في تهذيبه، والجوهري في صحاحه، وابن منظور في لسانه، والزبيدي في تاج عروسه.

وتسمى عينية الحادرة: كلمته الطويلة؛ ذكر ذلك ابن سلام الجمحي في طبقاته[1]، ومن ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني من أن حسان بن ثابت كان معجبًا بعينية الحادرة، وكان يطلق عليها كلمة الحادرة: "حدّثني محمد بن العبّاس اليزيديّ قال حدثنا عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي قال حدثني عمي قال سمعت شيخًا من بني كِنانة من أهل المدينة يقول: كان حسّان بن ثابت إذا قيل له: تُنُوْشِدَت الأشعارُ في موضع كذا وكذا يقول: فهل أُنشِدتْ كلمة الحُوَيْدِرة: بكَرَتْ سُمَيَّةُ غَدْوَةً فَتَمَتّعِ، قال أبو عبيدة: وهي من مختار الشعر؛ أصْمَعيّةٌ مُفَضَّليَّةٌ. وكانت سبب الهجاء بينه وبين زبان"[2]. وفي رواية أخرى: "قال أبو سعيد: كان حسان بن ثابت إذا تُنُوشِد الشعر قال: هل أُنشدت كلمة الحويدرة، قال أبو سعيد: يعني هذه (أي العينية). وهي في اختيار المفضل والأصمعي"[3].

ولقد تعرض "قدامة ابن جعفر" في كتابه "نقد الشعر" لعينية الحادرة، واتخذ منها نموذجًا، وذلك في أثناء حديثه عن نعت اللفظ، إذ قال: "أن يكون سمحًا، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة، مثل أشعار يوجد فيها ذلك، وإن خلت من سائر النعوت للشعر، منها أبيات من تشبيب قصيدة للحادرة الذبياني"[4]. إن قدامة بن جعفر يؤكد على تفرد عينية الحادرة، بقوة

[1] راجع: الجمحي، محمد بن سلام (1980)، السفر الأول، ص 186.

[2] الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (2008)، المجلد الثالث، ص 191.

[3] اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس (1969)، ص 303.

[4] ابن جعفر، أبو الفرج قدامة (بدون تاريخ)، ص 74.

لغتها وجزالة ألفاظها، وسماحة استخدامه اللفظ، وسهولة مخارج الحروف والنطق بها من مواضعها. أما أبو العلاء المعري في رسالة الغفران فقد أشار إلي الحادرة وشغفه بسمية، وأشاد ببراعته في فن الغزل، وصنَّفه مع شعراء الغزل والمحبين، من أمثال قيس بن الملوَّح، وذي الرُّمَّة، وكُثَيِّر، وجميل، وجعل شغف الحادرة بسمية مثل شغف هؤلاء الشعراء بمن يحبون[1].

(2)

تقع عينية الحادرة في ثمانية وعشرين بيتًا في رواية الأصمعي التي أملاها أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن يحيى المبارك اليزيدي في ديوان الحادرة[2]، وزاد محقق الديوان ثلاثة أبيات منسوبة إلى عينية الحادرة برواية المفضل الضبي وابن الأعرابي[3]، فتصبح العينية واحدًا وثلاثين بيتًا. أما العينية في رواية المفضليات (مفضلية 8) فإنها تقع في واحد وثلاثين بيتًا[4]، ويدخل في نطاقها الأبيات الثلاثة المشار إليهم سلفًا، ولهذا السبب فإنها الرواية التي سنعتمد عليها في هذه الدراسة.

يلعب دال البكور دورًا مفصليًا في عينية الحادرة التي تتشكل من عوالم ثلاثة، أولها عالم سمية ورحيلها، وثانيها: عالم القبيلة والفخر بها، وثالثها: عالم الفخر الذاتي. هذه العوالم منفصلة ومتصلة في آن؛ منفصلة لأن كلًا من هذه

---

[1] راجع:
- المعري، أبو العلاء (1993)، ص401.
- اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس(1969)، ص 277.

[2] راجع: اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس (1969)، ص 303-325.

[3] راجع: السابق، ص 353.

[4] الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (1979)، ص 43-48.

العوالم يمثل موضوعًا منفصلاً عن الآخرين، ومتصلة لأن ما يجمع بينها هو دال البكور الذي يصل بين هذه العوالم ويجمع بينها في النص جميعه.

لقد استهل الحادرة عينيته بدال البكور الذي جسده الفعل "بَكَرَتْ"، هذا الاستهلال يكشف عن العالم الأول في عينية الحادرة، وهو عالم سمية ورحيلها، يقول الحادرة[1]:

1- بَكَـــرَتْ سُـــمَيَّةُ بُكْـــرَةً فَتَمَتَّـــع وغَـدَتْ غُـدُوَّ مُفَـارِقٍ لـم يَرْبَـع[2]

2- وتَـــزَوَّدَتْ عَيْنِـــي غَـــدَاةَ لَقِيتُهـــا بِلِـوَى البُنَيْنَـــةِ نَظْـرةً لـم تُقْلِـع[3]

3- وتصـــدَّفَتْ حتَّـــى اسْـــتَبَتْكَ بواضِـــح صَـــلْتٍ كمُنْتَصِـــبِ الغَـــزَالِ الأَتْلَـــع[4]

4- وبِمُقَلتَـــيْ حَـــوْرَاءَ تَحْسِـبُ طَرْفَهـا وَسْـــنَانَ حُـــرَّةِ مُسْـــتَهَلِّ الأَدْمُـــع[5]

5- وإذا تُنَازِعُـــكَ الحـــدِيثَ رأَيتَهـــا حَسَـــنًا تَبَسُّـــمُها لذيـــذَ المَكْـــرَع[6]

6- بِغَـرِيضِ ســاريةٍ أَدَرَّتْـــهُ الصَّـــبا مِـــن مـــاءِ أَسْـــجَرَ طَيِّـــبِ المُسْـــتَنْقَع[7]

---

[1] السابق، ص 43-45.

[2] لم يربع: يعني لم يقم ولم يكف عن السير، يقال: ربع بالمكان إذا اقام به.

[3] اللوى: منقطع الرَّمل. البنينة: موضع، والعنيزة: موضع أيضًا. لم نقلع: لم نكف.

[4] تصدفت: أعرضت وانحرفت. استبتك: غلبتك على عقلك، صربتَ كأنك سبيُ في يدها. الواضح: الناصع الخالص، يعني عنقها الصلت: الأجرد الأملس والمشرق الجميل. الأتلع: الطويل العنق من كل شيء.

[5] المقلة: حشو العين بياضها وسوادها. وسنان: يقول كان فيه سِنَة، والسِنَةُ: النُّعاس. الحوراء: وصف من الحور، وهو شدة سواد العين مع شدة بياضها. المستهل: مجرى الدمع.

[6] تنازعك الحديث: تحادثك، تجاذبك إياه. المكرع: ما يكرع من ريقها، أي يرتشف.

[7] الغريض: الطري من كل شيء، وهو ههنا: الماء القريب العهد بالسحابة. السارية: السحابة تمطر ليلًا. والغادية: السحابة تمطر في الغداة. أدرته: استخرجته كما يستخرج الحالب اللبن. الصبا: ريح

7- ظَلَمَ البِطـاحَ لـهُ انهـلالُ حَرِيصـةٍ فَصَـفا النِّطـافُ لـهُ بُعَيْـدَ المُقْلَـعِ[1]

8- لَعِـبَ السُّـيُولُ بـه فأَصـبَحَ مـاؤُهُ غَلَـلًا تَقَطَّـعَ فـي أصـولِ الخِـرْوَعِ[2]

ينفتح نص الحادرة بالإخبار عن الرحيل لمحبوبته "سمية"، لكن الإخبار عن الرحيل ينطوي على نوع من المفاجأة والمباغتة؛ فسمية قد تأهبت للرحيل مبكرًا دون علم الشاعر، وأزمعت وعقدت النية على ذلك، والشاعر لا يمكنه فعل شيء سوى التمتع بالنظر إليها. إن النص لا يكتفي بالفعل "بَكَرَتْ" وهو فعل التأهب للرحيل مبكرًا، وإنما يعقبه بظرف الزمان: "بُكْرة"، وهو أول النهار وبدايته، ليؤكد رغبتها في الرحيل وتصميمها عليه والنية المعقودة للقيام به؛ إن "الفعل مطلق من قيد الزمان، والتجربة المحدودة الأسيرة في نطاق معين، والبكور أو الغدو هو الزمان في تجرده من معنى العبء، وتحرره من الضغوط الخارجية والداخلية، وتمتعه بانطلاقة كاملة هي صنو حرية النفس في أعلى رتبها"[3].

لقد كانت تجربة رحيل سمية في البكور امتحانًا لتجربة المودة بين الحادرة وسمية، فالمودة عالم من الأمن والطمأنينة والحب، والرحيل هو قطع المودة والطمأنينة والأمن، وهذا ما دفع الحادرة إلى فكرة التمتع ولو للحظات قليلة؛ فلفظة "فتمتع" على الرغم من كونها معالجة مؤقتة لفقد المودة والحب فإنها تحمل معنى التحسر والألم والتأسي. إن الحادرة يكاد يكون مجبرًا على "أن يرغم نفسه على

مهبها من الشرق. المستنقع: الموضع الذي استنقع فيه الماء. وكلما طاب الموضع من الأرض طاب له الماء.

[1] البطاح: جمع أبطح، وهو بطن الوادي يكون فيه حصى صغار. والحريصة: المطرة التي تحرص وجه الأرض، أي تقشره. انهلالها: سيلها وتدفقها. ظلمه البطاح: مجيئه في غير وقته. المقلع: إذا كف.

[2] لعب السيول به: أي جاءته السيول من كل ناحية ووجهة، كأنهن يلعبن. والغلل: الماء يجري في أصول الشجر، والغيل: الشجر الملتف. والخروع: شجر لين ناعم.

[3] ناصف، مصطفى (1992)، ص 172.

الإذعان والتجلد، وعلى الانتهاز الحكيم لهذه الفرصة الأخيرة، يستغل كل قطرة منها للتزود بمرأى محبوبته، ومسمعها قبل الفراق"[1]. وكأن هذا الفعل هو أمر لنفسه بأن تأخذ حظًا كبيرًا من التمتع بمحبوبته، وهكذا يصبح التمتع شفاءً من مباغتة رحليها الصادم ومواجهة موقف الفقد القاسي.

إذا كان الحادرة في شطر البيت الأول، أعلن عن فراق سمية التي أزمعت الرحيل وعقدت النية عليه في البكور، فإنه في الشطر الثاني من البيت يشكو طريقة عزمها على هذا الرحيل المبكر وتصميمها عليه: "وغَدَتْ غُدُوَّ مُفَارِقٍ لم يَرْبَعِ"، أي أنها متعمدة للرحيل، عازمة على الفراق، مصممة على القطيعة، وقطع المودة؛ ومن ثم تزداد حسرة الحادرة وألمه الذي يتبدى في الفعل المضارع المجزوم "لم يَرْبَعِ"، الذي يشير إلى أن سمية لم تقم بالمكان الذي كان عامرًا بالأوقات الرغدة بينهما، فهو يوجه عتابًا "لهذه الصاحبة التي ولهه حبُّها، ثم هى تغدو مع قومها غدوًا نشطًا خفيفًا مرحًا، لا يشوبه شيء مما يكدر المفارق المرتحل، كأنها لم تحس شيئًا من معاناته، وهذا الإعراض منها لم يزد معه الحادرة إلا ولهًا بها وصبابةً: فها هو يَتَتَّبَعُها بنظرة مشتاقة ملتاعة، تطول هذه النظرة ولا تقلع، وانظر إلى هذه الإضافة في قوله "غدو مفارق" وكيف صار بها الغدو غدوًا ثقيلًا كريها"[2].

إن سمية تبدو وكأنها (أو أنها فعلًا) فارقت فراق ساخط متبرِّم، فراق من لا يحدِّث نفسه بالمعاودة مرة أخرى. ويأتي البيت الثاني، وهو نتيجة محققة لما حدث في البيت الأول من رحيل وفراق، حيث يقرر الحادرة أن يتزود لهذا الفراق، بنظرة طويلة إلى محبوبته، وهذا ما تبدى بعبارة: "وتَزَوَّدَتْ عَيْنِي"، التي فسرها الشارح القديم بقوله: "يريد أنه لمّا التقيا عند الوداع رأى منها ما زاده خبالًا، وأنه أدام

[1] النويهي، محمد (1966)، الجزء الأول، ص 171.

[2] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 194.

النظر إليها، نظَرَ المتحسِّر في أثر ما يفوته، ولابدَّ له منه؛ لأنه يدوم إلى أن يغيب عن عين الرائي، بنظرة راجعة بِوَبال، لاهتياج الوجد، وحصول اليأس"[1]. ثم يبين لنا كيف أن سمية تعرضت له ثم أعرضت عنه، حتى جذبته بحسنها المشرق، "تعرضت لي حتى فتنتني بمحاسنها، ثم تمنعت، حتى أظهرت بتمنعها زهدًا فيَّ، والهوى يلُجُّ بي ويُذِلنِّي لها، حتى ملكتني بمحاسنها"[2].

لقد جعلت تلك المحاسن الحادرة أسيرًا لحبها، سبيًا لها ولجمالها. ويقدم الحادرة وصفًا دقيقًا لمحاسنها، فعنقها الطويل الممتد في رشاقة كأنه عنق غزال أتلع، ومقلتيها تتميزان بالحور شديد الجمال، وريقها العذب وطعمه يشبه غريض السحابة البيضاء السارية والناعمة. إن الحادرة، فيما أتصور، لم يرغب في إطالة الحديث عن ما فعلته معه محبوبته من فراق ورحيل، فهرع سريعًا للتغزل في ملامح سمية الجسدية ومفاتنها الجميلة، وذلك على النهج الذي درج عليه الشعراء الجاهليون في غزلهم، حيث اتجه إلى وصف عنقها المنتصب المشرق في بياضه (والإشراق والبياض من ألوان البكور)، وإلى عينيها الحوراوين، كما تطرق إلى وصف ريقها الذي يشبه ماء أدرَّته ريح الصبا الساكنة الناعمة الهادئة من هذه السحابة التي تسري ليلًا.

يبدو أن زمن البكور الذي رحلت فيه سمية مازال يسيطر على عقل الحادرة، ولذلك يأتي وصفه لجيد سمية بالجيد الأبيض الناصع المشرق الظاهر في بياضه بقوله:

وتصـــدَّفَتْ حتَّـــى اسْـــتَبَتْكَ بواضِـــح صَـــلْتٍ كمُنْتَصِـــبِ الغَـــزَالِ الأَتْلَـــع

فالعنق الواضح هو الناصع الخالص البياض، والصَّلْتُ هو المشرق الظاهر، وكلها معان تتضافر مع بياض وقت البكور، وشقشقة بريق الضوء ولمعانه. ثم يأتي،

[1] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 213.

[2] السابق، ص 213.

أيضًا، تشبيهه لعينيها بالحوراء، والحور اختلاط سوادها ببياضها، أو هو "شدة سواد سواد العين، وشدة بياض بياضها"[1]، وهو معنى يعبر عن البكور من حيث هو بداية النهار ومطلعه من اللون الأسود وهو آخر الليل ونهاية سواده وظلمته.

ثم يتطرق الحادرة إلى وصف سمية بالطرف الوسنان: "تَحْسِبُ طَرْفَها وَسْنَانَ"، والوسنان به سِنة، أي النعاس. فهل يريد الحادرة أن يصف محبوبته بأن في نظرها فتورًا حتى كأن طرفها ناعس؟ أعتقد أنه كان يرمي ببصيرته إلى مدى أعمق من أن يُخضع الفتور للوسن، ومن أن يُخضع سمية للاثنين معًا الفتور والوسن، حيث وصف سمية من قبل بالجمال الفاتن الذي فرض عليه أن يكون أسيرًا لحبها وجمالها، فكيف يصف لنا هذا الجمال بأنه في سبات ونعاس وغفلة؟ يبدو أن، كما طرح مصطفى ناصف، "الطرف الوسنان مظهر لحياة الروح الباطنية، التي لا تعتمد على نشاط الحواس الظاهرة، وأداة اتصال هذا النشاط وتفتحه. الطرف الوسنان ينطوي على ممكنات كثيرة، ويخلق استجابة خاصة، تتمثل في قول الشاعر "نظرة لم تقلع" بمعنى أن الحاجة إليها متجددة، وليس من اليسير إشباعها"[2]. إن الباعث على حياة "النظرة التي لم تقلع" هو عينه الباعث على حياة "الطرف الوسنان"، ولذلك فهو "الذي يحميها من التشتت والضياع. وتبلغ النظرة كمالها بالأشواق إلى هذه السِنة الكريمة المتعالية. فالسِنة الكريمة المباركة خالقة الاتصال، وخالقة الإرادة الحازمة، والكينونة المصفاة. وكل متغيرات العالم تخدم اللحظة الخالدة، ذات الطابع الوسنان، الذي يجذب كل الحواس المشتاقة"[3].

[1] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 214.

[2] ناصف، مصطفى (1992)، ص 171.

[3] السابق، ص 171.

خلق الحادرة لنفسه عالمًا معطاءً، مسبوغًا باللون الناصع الذي هو لون زمن البكور وبداية الضحى؛ عالم ينطوي على الماء النقي الساري في أصول الشجر، وعلى السحابة البيضاء السارية. لقد جعل الحادرة ما بين الماء الأسجر، وغريض السارية، ونسيم الصبا الناعم، تناغمًا وانسجامًا لا نظير له في عالم البشر، حيث جعل هذا الماء الغريض والقريب العهد بتلك السحابة، يتجمع ويستنقع في موضع طيب تستريح العين لرؤيته.

ويستمر الحادرة في بناء دعائم هذا العالم؛ فماء السارية الذي شبه به ريق سمية، هو الماء عينه الذي أُنزل من السماء برفق على مكان نظيف، وقد دفع بهذا الماء إلى حيث الحياة والنماء، أي دفعه إلى جذور الشجر في سياق نشط وحركة منظمة بريئة. فالحادرة "حين ذكر عذوبة الريق، لم يحدثنا عن حرارة الوجد ولهيب الأنفاس، إنما كانت عاطفة سامية تتعلق بالحياة وطراواتها، وطهارة ولائدها، وصفاء هذا الماء البارد الذي ألح في بيان نقائه وحفظه من كل شوب"[1]. ومازال هذا الماء يتدفق ويجري بين أصول شجر الخروع، حيث أحاط هذا الماء بشجيرات الخروع الطرية الناعمة، التي تتلائم في نعومتها وطراوتها مع اللعب العابث مع هذه السيول، كأنها ولائد صغار لاعبة مندفعة بمرح الطفولة ونشاطها. إن الزمان لا يمكن إدراكه بمعزل عن سمية. هي البكرة وهى الغدو، أو بالأحرى "لا تستطيع إذا غفلت عن سمية أن تعرف للزمان والمكان أهمية. الزمان ليس هنا ظرفًا، تتحرك فيه سمية، سمية هي التي جعلت للغدو والبكور ولوى البنينة معنى، سياق سمية جعل الزمان والمكان أشواقا"[2]. هناك علاقة وطيدة، أيضًا، بين الغريض والسارية؛ "لأن الغريض هو بداية ماء السارية، وسمى غريضًا لأنه لوحظ فيه معنى البداية والطراوة، وكأنه الدفقة البكر لهذه السارية، والتناغي هنا أريد به أن هذه الصورة

[1] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 203.

[2] ناصف، مصطفي (1992)، ص 176.

كأنها تتهامس بصلة، فالغريض الذي هو الدفقة البكر قريب من اللعب في قوله لعب السيول، وقريب من تلك الطراوة والنعومة في تلك الشجيرات الناعمة، والأعشاب الغضة"[1].

(3)

لقد لعب دال البكور دورًا محوريًا في العالم الأول من العينية، بداية برحيل سمية وقت البكور، ومرورًا بالريق النقي البكر لذيذ المكرع، والسحابة البيضاء السارية الناعمة، وانتهاء بالماء النقي وتسلله إلى الشجر. وإذا كان الأمر كذلك فإن دال البكور يتبدى في العالم الثاني من عوالم العينية الثلاثة، يقول الحادرة[2]:

9- فَسُـمَيَّ وَيْحـكِ هَـلْ سَـمِعْتِ بِغَـدْرَةٍ رُفِـعَ اللِـواءُ بِهـا لَنـاَ فـي مَجْمَـع[3]

10- إنَّـا نَعِـفُّ فَـلا نُرِيـبُ حليفَنـا ونَكُـفُّ شُـحَّ نفوسِـنا فـي الْمَطْمَـع[4]

11- وَنَقِـي بِـآمِنِ مالِنـا أَحْسـابَنا وَنُجِـرُّ فـي الْهَيْجـا الرِّمـاحَ وَنَـدَّعِي[5]

12- وَنَخُـوضُ غَمْـرَةَ كـلِّ يَـوْمِ كَرِيهَـةٍ تُـرْدِي النُّفـوسَ وَغُنْمُهـا لِلْأَشْـجَع[6]

13- وَنُقـيمُ فـي دارِ الحِفـاَظِ بُيوتنـا زَمَنًـا وَيَظْعَـنُ غَيْرُنـا لِلْأَمْـرَع[7]

---

[1] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 202-203.

[2] الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (1979)، ص 45-46.

[3] سمي: ترخيم سمية. كانوا في الجاهلية إذا غدر الرجل، رفعوا له بسوق عكاظ لواء ليعرفوه الناس.

[4] لا نريب حليفنا: لا نغدر به، ولا تأتيه منا ريبة.

[5] آمن المال: بفتح الميم، أوثقه في نفوسهم. نجر: من الإجرار وهو أن يطعن الرجلُ الرجلَ، ويدع الرمح فيه. وَنَدَّعي: نقول يا لَفُلان، وأنا فلان بن فلان، أي ينسب الشجاعة لنفسه في الحرب.

[6] تردى: تهلك، يقول: ذات ردًى. وغُنمتها للأَشجع: يقول الغنيمة لأهل الشجاعة والبأس، أي للذي هو أقوى.

[7] دار الحفاظ: التي لا يقيم فيها إلا من حافظ على حسبه، وصبر على ما لا يصبر عليه الناس، وذلك أنه لا يحافظ على حسبه إلا الشريف. يظعن: يرحل.الأمرع: الكلاء والعشب.

14- وَمَحَـــلِّ مَجْـــدٍ لا يُسَـــرِّحُ أَهْلُـــهُ يَـــوْمَ الإقامـــةِ والحُلـــولِ لِمَرْتَـــع[1]

15- بِسَـــبيلِ ثَغْـــرٍ لا يُسَـــرِّحُ أهْلُـــهُ سَـــقَم يُشـــارُ لِقَـــاؤهُ بِالإِصْـــبِع[2]

لقد عبر الحادرة، كما أشرت سلفًا، عن عالم البكارة الأولى في العالم الأول من العينية، أي عن حلم النقاء والماء الصافي الذي لا يعتريه كدر ولا شائبة. وقد تجسدت هذه المعاني في قوله: "انهلالُ حَرِيصةٍ"، والانهلال يذكرنا باستهلال الوليد وهو صوت يؤذن بالحياة وبدايتها أو بالأحرى بكورها، وتضافرت معها المعاني الأخرى، التي تغلب عليها معاني الطهارة والبكارة الأولى: (الصفا ، الغريض، الشجيرات، النطاف، السارية).

ينتقل الحادرة بعالم سمية ورحيلها وقت البكور إلى عالم آخر تكون سمية مفتاحه أيضًا، حيث يتوجه بحديثه إلى سمية التي تغزل فيها من قبل، وشكا رحيلها وقت البكور وفراقها له، مفتتحًا عالمه الثاني بقوله: "فَسُمَيَّ وَيْحكِ"، فقد حذف أداة النداء وذلك للشعور بالقرب منها ومعها، وهذا الترخيم والنداء أضفى على محبوبته مزيدًا من القرب والدلال والحب. ويبدو أن تكرار اسم سمية ما هو إلا تكرار للبكور والطهارة الأولى، "فبناؤه على هيئة التصغير بناء يوحي بمعنى الطفولة والبراءة والملاحة، وتكراره في القصيدة، يكرر ويؤكد ضمن ما يكرر ويؤكد الإحساس بالنقاوة والطهارة والبراءة، الذي حاولنا بيانه في حديث غريض السارية"[3].

[1] محل مجد: عطف على دار الحفاظ، والمجد من قولهم مجدت الإبل: بفتح الجيم إذا أكلت نصف الشبع. المرتع: مكان الرتع، وهو الرعي في الخصب. هذا البيت برواية ابن الأعرابي وحده.

[2] بسبيل: أي طريق المخافة أو موضعه. يقول: لا يُسَرِّحون فيه من الخوف لقربهم من العدو. والسَّقَمِ: المخوف. ويشار لقاؤه: أي يُقال هذا أَخبثُ بُقعة في الأرض.

[3] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 205.

ينادي الحادرة سمية بهذا النداء المفرد المرخم للتأكيد على التداني والقرب الروحي بينهما على الرغم من رحيلها في البكور وفراقها له. أو بالأحرى أتى الحادرة بهذا النداء المرخم ليزيل حاجز البعد المكاني الذي ظهر برحيل سمية، أو كما يطرح مصطفى ناصف: "أن سمية بعيدة، وأن الحاجة إليها ما تزال متجددة. كانت سمية أولًا نبأً أو حلمًا يتوهم فيه المرء أن ليس ثم مسافة واضحة"[1]. ثم يأتي الحادرة بلفظة "ويحك" لتؤكد قرب سمية من قلبه وعقله الذي يناديها في رفق وحنان، فكلمة "ويحك لم تكن تزيد على أن تكون صيحة تنبيه رقيقة من صديق إلى صديق، فإن تضمنت شيئا من اللوم، فهو عتاب رقيق يترقرق حنانًا"[2]. ويذهب محمد أبو موسى إلى تفسير هذه الكلمة بقوله: "انظر إلى كلمة الترحم والإعجاب والمديح في قوله "ويحك"، وكيف سكبها في أُذنها القريبة بهذا الهمس، وهذا البكور، ولم رحلت وتركت هذا الجوار الذي نَعِما به زمنًا، كما تنعم بالحياة الهادئة الناعمة الطاهرة"[3].

إن الحادرة يتطرق إلى أسلوب الاستفهام: "هَلْ سَمِعْتِ بِغَدْرَةٍ"، وكأنه ينكر عليها السماع بغدر أهله وقبيلته، ويتبرأ إليها من الغدر، وسوء القول والفعل، فيخبرها بأنه و قومه يعفُ عن جيرانه، ويفي بذممه، إنه ينفي صفة الغدر عن نفسه وأهله: "إنَّا نَعِفُّ"، مؤكدًا التخلق بخلق النبلاء والأوفياء، إن العفاف يحمل هنا معاني الطهارة والبكارة والنقاء؛ فالحادرة وقومه لا يغدرون بالحليف ولا يأتيه منهم ريبة، كما أنهم يمنعون أنفسهم من البخل والشح عند طمع الطامع في معروفهم وشهامتهم: "ونَكُفُّ شُحَّ نُفُوسِنا في المَطْمَعِ". إن الحادرة يصور لمحبوبته مدى اكتساب قومه للمحامد والخصال المحمودة التي امتلكتها نفوسهم، وجعلتهم لا

[1] ناصف، مصطفى (1992)، ص 177.

[2] النويهي، محمد (1966)، الجزء الأول، ص 218.

[3] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 206.

يبخلون في المبادرة باستخدام هذه الصفات في إعانة المحتاج إليها، وكأنه وقومه اكتسبوا خصال البكارة والنقاء والعفاف، بامتلاكهم لهذه الخصال الحميدة؛ ومن ثم ينبثق دال البكور والطهارة الأولى والفطرة النقية مرة أخرى، متجسدةً في سيطرة قبيلته على هذه الصفات.

إن دال البكور الذي ارتبط بسميَّة في العالم الأول من العينية هو عينه الذي ارتبط بقبيلته بامتلاكها لصفات الوفاء والنبل والنقاء والعفاف. أو بعبارة أخرى تؤكد هذه الصفات "العفاف والطهارة والوفاء، التي هي خلق الرجولة الصادقة، والتي يسكبها الحادرة أنغامًا عذابًا في أسماع صاحبته، ولله در هذه المرأة السامية التي تستهويها أحاديث النبل، والوفاء والعفاف، والطهارة"[1]. ومثلما سرد الحادرة صفات سمية الجميلة النقية من قبل، يسرد لنا صفات قبيلته التي تعد صفات حميدة يحتويها النقاء والوفاء؛ بما يؤكد على فكرة البكورة، ولهذا يؤكد لسمية بأنه إن أصاب حليفنا ضعف، وسنحت لنا الفرصة أن نعتدي عليه، ونسلب ما معه، لا نفعل السوء، ولا نغدر به بل نكف بما يجيش في نفوسنا من الطمع، ونظل على الوفاء معه.

ويفتخر الحادرة بأنه وقبيلته يصون فضائل آبائه ويحفظها، فهم يجودون بأموالهم، ويقون به أعراضهم: "وَنَقِي بِآمِنِ مالِنا أَحْسابَنا"، وهم حريصون على حماية أحسابهم الموروثة عن آبائهم. إن وصف الحادرة هذا يؤكد امتلاك قومه لصفة العفاف والنقاء. ثم يتطرق في الشطر الثاني من البيت إلى الفخر بشجاعة قومه وبلائهم في الحروب: "وَنُجِرُّ في الْهَيْجا الرِّماحَ وَنَدَّعِي"، أما إجرار الرمح فهو "أن يطعن الرجلُ الرجلَ، ثم يترك الرمح فيه، ليكون ذلك أعنت له، وقوله: وندَّعي، يريد أن الضارب إذا ضرب، أو طعن الطاعن، قال خذها وأنا ابن فلان، أو أنا

[1] السابق، ص 207.

فلان"[1]. والحادرة يتباهى بأنهم أهل نخوة وشجاعة في الحروب، ويمتلكون القوة في طعن الأعداء، حيث يضعون رماحهم في صدور أعدائهم، كما أن ترك الرمح في الجسد يسبب آلامًا طويلة، أشد مما لو انتزع منه، فهذا أدعى للفخر بقومه بأنهم يجهرون بقتل الأعداء، معلنين عن أنفسهم بتركهم الرمح في أجسام أعدائهم.

تتلاقى، إذن، صفات الجود والعطاء بصفات البأس وصدق اللقاء، حيث يصرح بأنه وقومه يخوضون الغمرات التي يردى فيها الناس ويهلكون، وقد عبر قوله: "وَنَخُوضُ غَمْرَةَ كلَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ" عن كثرة الشدائد التي تحيط بالنفس إحاطة كاملة، "ونخوض فعل من الأفعال التي تكون في الماء، فكأن الهول والشدة صار غمرًا له أمواج تتلاطم، والشاعر ورهطه يخوضون عُبَبَ هذا الهول، ويركبون ذرا أمواجه، ولهم طاقة هائلة في مواجهة الشدائد، لا يوهنهم تتابعها وترادفها، فهم ليسوا ممن تنقطع أنفاسهم باجتياز واحدة ولا ثانية ولا ثالثة، وإنما هم يخوضون غمرة كل يوم كريهة، ويوم الكريهة هو اليوم الصعب الشديد"[2]. وهنا يصف قوة قومه، وتغلبهم على الشدائد ويوم الكريهة، والكريهة هي التي تهلك الناس وتضر بهم، لا ينتصر فيها إلا قومه أصحاب الشجاعة والبأس؛ فيأتي بالتشبيه الرائع، حيث جعل هذه الشدائد تبتلع تلك النفوس ابتلاع الماء الغامر (والغمرة والغمر في الأصل الماء الكثير، والبحر العظيم بأمواجه[3]) لما يحيط به. وقد جاءت عبارة: "تُرْدِي النفوس" لتؤكد ذلك المعنى وتثبت قوته، فهي كريهة تدمر وتهلك، وتطحن الأقوام، هذه الكريهة التي هي منبع الدمار والهلاك والموت يخوضها الحادرة وقبيلته في إقدام وشجاعة، دون خوف منها ويظفرون بالغنيمة.

[1] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 222.

[2] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 211.

[3] راجع: النويهي، محمد (1966)، الجزء الأول، ص 244.

ويصف قومه بأنهم حريصون على حماية أحسابهم وأنسابهم الموروثة، وأنهم أهل الحفاظ على الحرمات، وأصحاب الحمية عند الغضب. ومن فرط قوة قوم الحادرة لقبوا بأنهم أهل الحفاظ، حيث إنهم لا يهجرون أرضهم ظاعنين للبحث عن الكلأ والمكان الخصب، بل هم المستقرون في أرضهم الحافظون عليها من الطامعين الذين يفكرون في الإغارة عليها، على عكس غيرهم الراحلون عن أرضهم خوفًا من الإغارة عليهم واستلابهم، أو "أرض الحفاظ أو دار الحفاظ"، وهي، كما فسر الشارح القديم، "التي لا يقيم بها إلا من حافظ على نسبه، وحسبه وصبر على مالا يصبر عليه غيره وذلك أنه لا يحافظ على نسبه وحسبه إلا الشريف"[1]. إن الحادرة يفتخر بأن قومه أصحاب المنعة والقوة في الحفاظ على محارمهم وبيوتهم، وقد وضح "محمد النويهي" ذلك بتفسير آخر جديد بقوله: "يجيز لنا أن نضيف معنى آخر لقوله "دار الحفاظ"، أزيد مما قاله الشراح القدماء. فحفاظهم عليها لا يعني صبرهم على جدبها حين تجدب فحسب، بل يعني أيضًا صبرهم على قتال الطامعين فيها، المهاجمين لها حين تكون مخصبة، إلى أن يشتهر عنهم ذلك، فلا يعود أحد يطمع فيها"[2].

يبدو أن صفات الحفاظ على الأهل والمحارم والأرض من الصفات المحمودة التي تعد استكمالًا لصفات العفاف والطهارة الأولى والنقاء والبكارة. فقد وصف الحادرة قومه بامتلاكهم هذه الصفات دون غيرهم، وهذا يعني تفردهم بصفة البكارة الأولى والطهارة والعفاف، فهم "خيرُ أيسارٍ، وخيرُ فوارسٍ"[3]. ويفتتح الحادرة البيت اللاحق بقوله: "وَمَحَلِّ مَجْدٍ"، التي جاءت معطوفة على "دار الحفاظ"، ليؤكد امتلاك قومه لصفات الشرف والعزة والكرامة، كما أن الباء في قوله: "بِسَبيلِ ثَغْرٍ" مرتبطة

---

[1] ابن ميمون، محمد بن المبارك بن محمد (1999)، المجلد السادس، ص 366.
وراجع أيضًا: الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (1920)، ص 58.

[2] النويهي، محمد (1966)، ص 247.

[3] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 224.

بقوله: "نقيم بيوتنا"، أي أقمنا في نفس المكان. هذا المكان الذي وصفه بأنه "سَقِم" حيث يوحي بمدى هول وفزع الناس من هذا المكان الذي يعيشون فيه قوم الحادرة. ويفتخر الحادرة بأن قومه يعيشون في المكان الذي يهابه الناس، فلا يفكر أحد في الإقدام عليه، ثم عضد هذا الوصف القوي بلفظة: "ثَغْر"، حيث جعل قومه يسكنون هذا المكان المفتوح من كل الجوانب، فهو كالثغر القوي مكشوف الجوانب من قوته.

ويشير "عبد الله الطيب" في كتابه: "المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها" إلى أن التلذذ بالخمر مع الفتية شبيهٌ بالتلذذ بحب سُميّة، وقد آذنت بالرحيل، فكأنَّ وصف الثغر في باب النسيب لَفَتَهُ بنوع من تداعي المعاني إلى الثغر الذي وصفه في باب الفخر، وكأن صورة مباكرة اللذة مع الفتية منتزعةٌ من ثغرها المتُرعِ اللذيذ المكرع. وقد ضمن صفة الثغر المترقرق بصفائه وحلاوته، تلك الصفات التي نعت بها الغدير والسارية، والغلل المتقطع في أصول الخروع. ثم وصف لذيذ المكرع هذا بصفاء قطرات السارية، ثم جعل ذلك غديرًا لمائه، مع الصفاء لون أسجر، فهذا هو اللمى ولون البياض[1]. ولهذا جاء البيت الأخير من هذا العالم مؤكدًا لامتلاك أهله لصفات القوة والمنعة حيث يشار إليهم بالإصبع، فيقول هذا المكان مخوف فاحذروه؛ حيث يقطنه قوم الحادرة؛ وهو موضع المخافة لقوتهم وشدة منعتهم له. لقد بنى الحادرة مجدًا شامخًا من القيم النبيلة، والصفات النقية الراسخة مثل العفاف والطهارة الأولى والبكارة، والدفاع عن المحارم والتصدي للأعداء والحفاظ على الأرض. إنها صفات تميل إلى التفرد وتخص قومه دون غيرهم.

[1] راجع: الطيب، عبدالله (1992)، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص 329-330.

لقد كان الفخر بقبيلته ضربًا من ضروب التمسك بالبكور، ذلك البكور الذي لازمه منذ البداية مع العالم الأول المتصل برحيل سمية، واستمر معه في العالم الثاني المتصل بالفخر القبلي، "والعودة إلى البكور متعددة الأساليب في القصيدة – كما ترى– لقد اختلط البكور أول الأمر بالسرى والسحاب والمطر والريح المباركة. ثم اختفى هذا العالم الذي ظل قابعًا في أعماق الضمير. وحاول الإنسان استرجاعه، فلقى في ذلك عنتًا أي عنت. عاد الإنسان إلى رحم المجتمع، أو حاول ذلك من أجل أن يتمثل وجدان البكور"[1]. يتجه الحادرة بخطابه في العالم الثالث من العينية إلى سميَّة ليخبرها عن اندفاع الشباب والقوة، ويصور عالم الفخر الفردي بتجليات متنوعة، يقول الحادرة[2]:

16- فَسُـمَيَّ مـا يُـدريكِ أنْ رُبَ فِتْيَـةٍ بَـاكَرْتُ لَـذَّتَهم بِـأَدْكَنَ مُتْـرَعِ[3]

17- مُحْمَـرَّةٍ عَقِـبَ الصَّـبُوح عُيـونُهمْ بِمَـرًى هنـاك مـن الحيـاةِ ومَسْـمَعِ[4]

18- مُتَبَطِّحِـينَ علـى الكَنِيـفِ كـأَنَّهم يَبْكُـونَ حـولَ جَنَـازَةٍ لـمْ تُرْفَـعِ[5]

19- بَكَـرُوا علـيَّ بِسُـحْرَةٍ فَصَـبحْتُهمْ مِـن عـاتقٍ كَـدَم الغـزَالِ مُشَعْشَـعِ[6]

---

[1] ناصف، مصطفى (1992)، ص 181.

[2] الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (1979)، ص 46.

[3] فسمي: حذف حرف النداء. رب: بفتح الباء مخفف رب بالتشديد. الأدكن: مال لونه إلى السواد، عنى به هنا الزق. مترع: مملوء.

[4] الصبوح: بالفتح، شرب الغداة. بمرى: أراد بمرأى بالهمزة، فترك الهمزة. يقول: بمنظر من الحياة ومسمع، حيث يرون ما يشتهون وما يسمعون.

[5] متبطحين: مستلقين على وجوههم. الكنيف: حظيرة من خشب أو شجر، تتخذ للإبل لتقيها الريح والبرد.

[6] السحرة: بضم السين، والسَحر: وهو وقت قبل الفجر. صبحتهم: سقيتهم الصبوح. العاتق: الخمر العتيقة القديمة. المشعشع: المرقرق بالماء لا قليلًا ولا كثيرًا.

20- ومُعَـــرَّضٍ تَغْلِـــي المَرَاجِـــلُ تحتَـــه عَجَّلْـــتُ طَبْخَتَـــه لَـــرَهْطٍ جُـــوَّع[1]

21- ولَـــدَيَّ أَشْـــعَثُ باســـطٌ لِيَمِينِـــهِ قَسَـــمًا لقـــدْ أَنضـــجتَ لـــم يَتَـــوَرَّع[2]

مرة أخرى يعود الحادرة إلى مخاطبة محبوبته سمية، حاذفًا حرف النداء وذلك لقرب سمية منه والتصاقها بعقله وروحه، متحدثًا إليها عن شبابه واندفاعه، وناداها مسبقًا بحرف الفاء قبل اسمها: "فَسُمَيَّ"، ليستكمل معها سرد بطولته الفردية، بعدما أخبرها من قبل عن بطولات قومه، أو بالأحرى كأنه "يقول لها وراء هذه الفاء: إذا كنتِ قد عرفتِ فضائل قومي وبلاءهم، وخوضهم غمار كل بَلِيّة، وإقامتهم في دار الحفاظ والثغور المهلكات، فلا تظني أن هذه الشدائد تحول بيني وبين لذات اللهو، ومرح الشباب، ومجالس الرفاق في لياليهم الساحرة الساهرة، هذه الفاء إذاً هي تلك الرباط القوي المحكم، الذي يربط أجزاء المعنى بعضها ببعض. وهى ذلك المعبر الذكي الذي ينزلق عليه القول من باب من أبواب المعنى إلى باب آخر"[3]. أما "محمد النويهي" فإنه يفسر وجود الفاء قبل النداء المحذوف بقوله: "كيف يوجه الحادرة فخره الشخصي إلى (نفس) المحبوبة التي وجه إليها فخره القبلي، فيحقق بهذا ترابطًا جميلًا بين الفخرين. ونحن إن كنا لم نقتنع بربطه بين ذاك الفخر القبلي، وبين نسيبه في مطلع القصيدة، فإننا نقبل الربط بين الفخرين،

[1] المعرَّض: بتشديد الراء المفتوحة، اللحم الذي لم يبلغ نضجه. المراجل: جمع مرجل وهو ما يطبخ فيه.

[2] الأشعث: المضرور المحتاج، أصله من شعث الرأس. باسط ليمينه: بازل لها، يحلف من الجهد والضر ليطعمه.

[3] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 217.

ونستجيب لجمال الربط بالفاء، كأنه يقول: الآن يا سمية قد عرفتِ إلى أي قبيلة أنتمي، فاسمعي حديثي عن نفسي أُخبركِ أي فتى أنا"[1]

ربما أتصور أن ما يربط بين النسيب أو عالم سمية الأول في النص والفخر القبلي أو العالم الثاني هو دال البكور الذي يجمع بينهما، ويجمع هذا الدال أيضًا بينهما وبين العالم الثالث من العينية وهو عالم الفخر الفردي. ومن ثم يبدو التلاحم بين أغراض العينية وثيقًا متواشجًا، أو على حد وصف "محمد الأمين المؤدب"، في دراسته النصية لعينية الحادرة الذبياني: "ونحن إذ ننظر إلى قصيدة الحادرة من هذه الزاوية، زاوية الأبواب أو الأغراض؛ فلأن الشاعر نفسه كان يرمي إلى خلق نوع من التواشج بين هذين الغرضين؛ غرضي النسيب والفخر، على مستوى القيم المثلى، ويسعى إلى تحقيق نوع من الافتتان الخفيّ، بين معاني النسيب والفخر، على مستوى التماسك النصيّ، والانسجام الدلالي"[2]. وثمة رأي آخر يرى: أن سمية "هي من السمو أو الوسم، تكرر اسمها ثلاث مرات، أولها تام من غير نقص؛ لأن الرحيل كان خيارًا لها، وهي حرة تامة في اختياراتها، فلم ينقص اسمها، ولعله (أي الحادرة)[3] كان يحلم بالكف عن الرحيل في ساعة الوداع، فخاطب فيها تمام حريتها وعقلها، وانتقص اسمها؛ لأن رحيلها يحمل انتقاصًا له ولقبيلته، إذ كان في موضع الدفاع عن قبيلته وعن نفسه، ولا شك أنه كان يستحضرها، بحضور اسمها استحضارًا تامًا أو ناقصًا، وفق الموقف والأحوال في مقاطع القصيدة"[4]. تعددت الآراء حول حذف حرف النداء، وترخيم المنادى، والتصاق حرف الفاء بهذا المنادى

[1] النويهي، محمد (1966)، ص 259–260.

[2] المؤدب، محمد الأمين (2013)، ص 74.

[3] ما بين القوسين من عندي وليس بالنص.

[4] حسين، محمد عبد الكريم (2011)، ص 70.

المرخم، ولكن ما يعنيني هنا أن الحادرة "أعاد مناداتها لخروجه من قصةٍ إلى قصة، وأتى بالفاء ليربط جملةً بجملةٍ"[1].

يفتخر الحادرة هذه المرة برفاقه فهم فتية ليسوا كغيرهم من الفتيان، ومن ثم جاءت لفظة "فتية" نكرة، للتأكيد على أنهم فتية يحبون الحياة، يندفعون إلى مجالس الشراب ومتع اللهو، ومن فرط تمتعهم بملذات الشباب وكؤوس الشراب عاجلت لذتهم في البكور، "فالحادرة يناديها باسمها، وينبهها بأنه كان كريمًا مع فتيان قومه من أصدقائه، فقدم لهم الخمر المعتقة، مصبحين عنده، أو مبكرين إليه في طلبها بمجلسه، ويصبحون عنده وعيونهم محمرة من طول السهر وأثر الشراب فيهم"[2].

ويبدو أن دال البكور يعود مرة أخرى ليرافق الحادرة ورفاقه، مثلما رافق سمية في رحليها، ورافق قومه في امتلاكهم صفات العفاف والطهارة والتفرد بالبكارة من قبل. أو بعبارة أخرى: إن البكور الذي ارتبط بسمية في مقطع رحيلها لا يختلف عن البكور الذي ارتبط بقومه وبدار الحفاظ ومحل المجد في مقطع الفخر بقبيلته؛ ولهذا يعد بكور سمية هناك لا يختلف عن بكور الفتية هنا في مقطع الحديث عن الخمر، لقد "نبه بهذا الكلام على أن الفتيان الذين أشار إليهم كانوا أكفاءً له ومعاشرين، فكانت النُّوَبُ تدور عليهم، يدلك على ذلك أنه قال رب فتية باكرت لذتهم، ثم قال: "بكروا عليّ"، فجعل بينه وبينهم تباكُرًا وتساعُدًا، ولا يمتنع أن يكون جعل نفسه المعتَمد؛ لأنه قال: "باكرتُ لذتهم". وهذا لا يمانع كونهم تابعين له"[3]. ويبدو أن زمن البكور مرتبط باستباق اللذات، وأن الحادرة فتى الفتيان الذي يباكر رفاقه في شرب الخمر. ثم يصف الحادرة رفاقه وقد امتلأت بهم مجالس الشرب في

---

[1] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 226.

[2] حسين، عبد الكريم محمد (2011)، ص 62.

[3] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 227.

البكور، حيث يتصارعون إلى تناول رّق الخمر الداكنة المعتقة، الذي يختلط لون سوادها بالحمرة، وكأن وقت البكور والتبكير هو المأوى الذي يضمهم ويحتويهم منذ لحظات النهار الأولى. هذه الخمر التي هي كدم الغزال ويروى كدم الذبيح، "وفي هذا التشبيه شيء مستكن من معنى الغزال الأتلع الذي هو حبيبته الحسناء البكر، التي بكرت مفارقة، وما متعته إلا نظرة"[1].

يستمر الحادرة في وصف الخمر وآثارها على رفاقه، فقد شربوا منها وثملوا حتى احمرت جفونهم، وتملكتهم لذات الشباب واندفاعه، أي أن الحادرة يقول: "باكرتهم بزق مملوء خمرًا، ليلتذّوا بشربها، ثم استمر في صفة الخمر، وحمّل الكلام على المعنى لا على اللفظ. وكأنه قال: باكرتهم بخمرة تحمر عيون المصطبحين بها، عقيب شربهم لها لشدتها. وهم في ذلك المكان والزمان، من طيب العيش، والتمتع بالحياة، بمرأى ومسمع"[2]. ثم يتابع وصف هؤلاء الرفاق، وقد صحبتهم نشوة الخمر منذ البكور، إلى الانبطاح على حظيرة الإبل، وكأنهم يبكون على ميت لم يدفن بعد، أو جنازة لم تقم شعائرها بعد. لقد صور الحادرة رفاقه وهم مستلقون مع متعة شربهم ولذاتهم، كأنهم يستلقون وينبطحون على حظائر الإبل يتمتعون بنشوة الفجر وتجدد الصبح ووقت البكور مرة تلو الأخرى، وكأنهم في ذلك الوقت من فرط متعتهم يبكون على الجنازة التي لم ترفع بعد. ولقد برع الحادرة في أن ينقل رفاقه المنبطحين من نشوتهم في وقت البكور إلى وقت الحزن والحداد على الجنازة الخاصة بهؤلاء الرفاق فقط، وهذه الجنازة موعدها مع رفاقه عند حلول الليل وسواده وظلمته، منتظرين وقت الصبوح والبكور ليتسابقون فيه إلى تناول كؤوسهم والتمتع بلذاتهم، أو بالأحرى يعد وقت البكور مرتبط باللذة والمتعة، أما وقت الليل فهو وقت إقامة الجنازة وطقوس الحداد

---

[1] الطيب، عبدالله (1992)، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص 330.

[2] ابن ميمون، محمد بن مبارك بن محمد (1999)، المجلد السادس، ص 366.

لما انتهت النشوة واصطدم الحادرة ورفاقه بالواقع الحياتي المعيش، قرر الحادرة أن يخدم رهط قومه المحتاجين، ويقدم لهم المساعدة، ويتبدى ذلك بقوله: "ومُعَرَّضٍ تَغْلِي المَرَاجِلُ تحتَه"، التي جاءت معطوفة على فتية، ومن ثم أصبح الحديث موصولًا ومتصلًا بسمية، التي رحلت عنه وقت البكور، وهو ذلك الوقت عينه الذي يطهو فيه الحادرة الطعام، ويشعل نيران المراجل لكي تغلي وتُنضج الطعام للمحتاجين والمضرورين الجياع؛ وقد أكدت عبارة: "عَجَّلْتُ طَبْخَتَه" تعاطف الحادرة مع هؤلاء الجياع وإمدادهم بالطعام من أول النهار، ليذهب عنهم حدة الجوع والحزن، وكأن الحادرة يبذل الجهد، مثلما تبذل المراجل الجهد القوي لإنضاج الطعام بسرعة وتقديمه للمحتاجين بسرعة، أو تقديمه لهذا الأشعث الجائع مقسمًا له بعدم تركه جائعًا، باذلًا كثيرًا من الجهد ليطعمهم: "باسطٌ لِيَمِينِهِ قسمًا".

ولقد تجسد دال البكور في علاقة الحادرة برفاقه بالقوة والفعل، أو على حد تعبير مصطفى ناصف: "وها هنا يسند البكور إلى الشاعر طورًا، ورفاقه طورًا آخر، وهكذا يأخذ هؤلاء المشتاقون في مشاركة سمية بكورها، وراحوا يبحثون عن طقوس القربى، ولكنهم – جميعًا – على مسافة واضحة"[1]. لقد تلاحمت مقاطع العينية في ارتباطها بالبكور؛ فالبكور في رحيل سمية، هو عينه البكور في الضحى وعلو الضوء ووضح النهار. وكان وضح النهار آية على وجود البكور وارتباطه بكل وحدات العينية، كما أن الالتجاء إلى الفخر بقومه وآبائه، وأجداده، يعد ارتباطًا قويًا بالبكور وزمن الأصالة والطهارة الأولى.

ومثلما سرد الحادرة في فخره القبلي كرم قبيلته فهم أهل الحفاظ والكرم، فإنه يسرد لسمية كرمه في مساعدة المحتاجين، وكما كان دال البكور ملتصقًا بسمية منذ رحليها في البكور: (بكرت بكرة، وغَدَتْ غُدُوَّ، غريض ساريةٍ، الصَّبا، ماء

[1] ناصف، مصطفى (1992)، ص 181.

أسْجَرَ، لذيذ المكرع، الصفا، الشجيرات)، كأن دال البكور ودواله ملتصقًا، أيضًا، بالفخر القبلي ووصف قومه بصفات الطهارة الأولى والعفاف، والحفاظ على المحارم، وأنهم أهل مجد ومنعة، وكلها دوال تميل إلى البكور، والبكارة الأولى. وينبثق دال البكور بقوة في الفخر الذاتي الذي اصطحبه الحادرة مع رفاقه الذين يتسابقون إلى تناول لذاتهم وقت البكور، ولقد تجسد ذلك بقوله: (باكرت لذتهم، الصبوح، بكروا عليَّ بسُحرةٍ).

(5)

وينتقل الحادرة في العالم الثالث من العينية من وصفه البالغ لجوده ومساعدة الفقير (الأشعث)، وقيامه على خدمة قومه المحتاجين، ليحدث سمية عن ضرب آخر من ضروب أخلاقه الرائعة، واندفاع شبابه وعنفوانه، مفتخرًا بانطلاقه على ناقته السريعة، فيقول[1]:

22- ومُسَهَّدِينَ مِن الكَلاَلِ بَعَثْتُهُمْ بعدَ الكَلاَلِ إلى سَوَاهِمَ ظُلَّعِ[2]

23- أَوْدَى السِّفارُ بِرِمّها فَتَخالُها هِيمًا مُقَطعَةً حِبالُ الأَذْرُعِ[3]

24- تَخِدُ الفَيافِي بالرِّحالِ وكلُّها يَعْدُو بِمُنْخَرِقِ القَمِيصِ سَمَيْدَعِ[4]

---

[1] الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (1979)، ص 46-48.

[2] المسهد: الممنوع من النوم. الكلال: الإعياء. السواهم: الإبل الضامرة لشدة التعب. وظلْمها:بسكون اللام أن تشتكي أيديها.

[3] أودى به: ذهب به. السفار: مصدر "سافر" قياسي لم ينص عليه في المعاجم. الرم، بكسر الراء: مخ العظم، أي ذهب السفار بلحومها وشحومها. الهُيم: جمع"هيماء" من الهيام بضم الهاء، وهو داء يأخذ بالإبل شبيه بالحمى، من شهوتها الماء، تشرب فلا تروى، فإذا أصابها ذلك فصد لها عرق، فيبرد ما تجد، أي كأنها مقطعة العروق ما تقدر على المشي.

[4] تخد: من الوخدان، وهو أن يرمي البعير بقوائمه كمشي النعام. الفيافي: القفار. السميدع: الجميل الشجاع. وجعله منخرق القميص لمعالجته السفر وابتذاله فيه نفسه.

25- ومَطِيَّـــةٍ حَمَّلْـــتُ رَحْـــلَ مَطيَّـــةٍ حَـــرَجٍ تُـــنَمُّ مِـــن العِثَـــارِ بِدَعْـــدَعِ[1]

26- وَتَقِـي إِذا مَسَّـتْ مَنَاسِـمُها الحصـى وَجَعًـــا وإِنْ تُزجَـــرْ بـــه تَتَرَفَّـــعِ[2]

27- ومُنـــاخِ غيـــر تَئِيَّـــةٍ عَرَّسْـــتُهُ قَمِـنٍ مِـنَ الحِـدْثَانِ نـابِي المَضْـجَعِ[3]

28- عَرَّسْـــتُهُ وَوِســـادُ رأَســـي ســـاعِدٌ خـاظِي البَضـيعِ عُروقُـه لـم تَدْسَـعِ[4]

29- فَرَفَعْـتُ عنـــه وهـــو أَحْمَـــرُ فـــاتِرٌ قـد بـانَ مِنِّـي غيـر أَنْ لـم يُقْطَـعِ[5]

30- فتَـــرى بحيـــثُ توكَّـــأَتْ ثَفِيناتُهـــا أَثَـــرًا كَمُفْـــتَحَصِ القَطـــا لِلْمَهْجَـــعِ[1]

---

[1] حرج: بفتحتين الناقة الضامرة، أو الجسيمة الطويلة على وجه الأرض. نم: من النم، وهو الإغراء. دعدع: كلمة يدعى بها للعاثر ليرتفع، في معنى قم وانتعش واسلم. قال الأصمعي: كانت الإبل في الجاهلية إذا عثرت، قيل "دعدع" لتنمي وترتفع، فلما جاء الإسلام كره ذلك فقالوا: اللهم ارفع وانفع.

[2] تقي: من الوقي، بفتح وسكون وهو الحفا. يقال: فرس واق، إذا حفى من غلظ الأرض، ورقة الحافر. المناسم: جمع منسِم بكسر السين، وهو خف البعير. تترفع: ترتفع في سيرها وتسرع.

[3] المناخ: موضع إناخة الإبل. التئية: التمكث والإنتظار، يقال قد تأييث بالمكان، أي تمكثت به. التعريس: نزول القوم من السفر ليلًا، عدى الفعل بنفسه توسعا، وأصله عرست فيه. قمن: بفتح الميم وكسرها، خليق وجدير، ونصوا على أن الكسر شاهدة هذا البيت. الحدثان: بكسر الحاء مع سكون الدال، وبفتحهما: نوب الدهر وحوادثه، أي خليق أن يكون فيه الحدثان. نابي المضجع: لا يطمئن فيه لخوفه منه.

[4] البضيع: اللحم جمع "بضع" بفتح فسكون، وهو من نادر الجمع، مثل كلب وكليب، ورهن ورهين. والخاظي، من اللحم، بمعجمتين: الكثير. لم تدسع: لم تمتليء من الدم. يصف خوف هذا الموضع وأن صاحبه ليس بمطمئن، فتوسد ذراعه.

[5] رفعت: فعل محذوف مفعوله، أي رفعت رأسي عن الساعد وقد احمر وخَدِر فصار في حكم البائن مني، غير أنه كان متصلًا بي. ويروى: أحمر قانئٌ. والقنوء: هو شدة الحمرة.

31- ومتـــاعِ ذِعْلِبَـــةٍ تَخُـــبُّ براكـــبٍ مـــاض بِشـــيعَتِهِ وغيـــرِ مُشَـــيَّعِ[2]

يوجه الحادرة خطابه إلى سمية من جديد، وذلك ما جسده قوله: "ومُسَهَّدِينَ مِن الكَلَالِ"، التي جاءت معطوفة على "رُبَ فِتْيَةٍ" في البيت السادس عشر، "ولو قلنا أن الواو واو رب، فإنا نعلم أن العطف لازم لها، لا ينفك عنها في كل معانيها، ولو سلمنا مع بعض النحاة الذين يرون أن واو رب ليست عاطفة، فإن رب التي جاءت الواو بمعناها، ناظرة إلى رب التي هناك عند سمية، وهذا يكفي عندنا في ربط ذلك الشعر بسمية"[3]. في العالم الثالث من العينية يفتخر الحادرة بأنه قائد لرفاقه في الإقدام على الأسفار المُنْهِكة، مثلما كان من قبل قائدًا لهم في الإقبال على حياة اللذة ومجالس الخمر والشراب. إنه لم يدعهم يمتلئون من الرقاد ويستوفونه، وهذا يتبدى من قوله: "بَعَثْتُهُمْ"، التي تومئ إلى أنه: "بعثهم سَحَرًا فلا وقت للرقاد"[4]؛ فالحادرة يفتخر بأنه يستبق إلى الشيء مبكرًا أو في وقت البكور، فكان له التفرد والبكور في بعثهم، مثلما كان له التفرد والسبق إلى: "باكرتُ لذتهم"، والبكور إلى مساعدة الفقراء والجوعى: "عَجَّلْتُ طَبْخَته لَرَهْطٍ جُوَّعِ".

يصف الحادرة رفاقه بأنهم مجهدون مسهدون من الكَلَالِ، وأن السهر والجهد بلغ منهم أشده، حتى حال بينهم وبين النوم والراحة، وهذا ما جسده تكرار لفظة الكَلَالِ، التي تحمل معنى الأعياء بقوله: "ومُسَهَّدِينَ مِن الكَلَالِ بَعَثْتُهُمْ بعدَ الكَلَالِ". إن الحادرة الذي دعا رفاقه من قبل إلى استباق لذاتهم في البكور، هو عينه الحادرة الذي يهتف برفاقه بعد المشقة والكلال، ويدعوهم إلى السفر، ليستأنفوا

---

[1] الثفنات، بكسر الفاء: مواصل الذراعين والعضدين من باطن، وهي التي تلي الأرض منها إذا بركت. مفتحص القطا: حيث يفحص في الأرض لبيضه. المهجع: موضع الهجوع.

[2] الذعلبة: الناقة السريعة. تخب: من الخبب، وهو ضرب من العدو.

[3] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 225.

[4] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 231.

مشقة الأسفار. وجعل الإبل التي تحملهم إبل غَيَّرَها وأهلكها الكلال والتعب، فهي تماثلهم في الإعياء والكلال، وليس هذا فحسب وإنما هي "ظُلَّع" أي: الكسول في مشيها؛ لأنها موجوعة الخفاف من كثرة السير[1]. والظَّلَعُ في الإبل بمنزلة الغمز في الخيل؛ لأنها تشتكي أيديها من التعب، ثم أعقبها بوصفها بأنها "هِيمًا"، والهُيام "داء يأخذ الإبل شبيه بالحمى، من شهوتها للماء، تشرب فلا تروى، فإذا أصابها ذلك فُصِد لها عرق، فيبرد ما تجد"[2]. وكأن الحادرة يفتخر بقوته وشجاعته وتفرده بالبكور في تحمل مخاطر السفر على مثل هذه الإبل فيقول: "إني لم أبق على رفقائي، للكلال الظاهر عليهم، ولا على رواحلهم، مع ظهور الحال في ضعفها وسقوطها. بل حملتهم على التعب، ودعوتهم إلى الصبر على النصب"[3]. وصف الحادرة الإبل التي حملته ورفاقه بأنها ضامرة يابسة، ذهب شحمها ولحمها، كما أنها: "مُقَطعَةً حِبالُ الأَذُرعِ"، وهى كناية عن ظهور آثار الجروح والتقطيع والتمزق في حبال أَذرعها، ويخالها المرء مصابة بداء الهُيام. إن الحادرة في هذا الوصف الدقيق يرغب في تصوير المعاناة والمشقة مع تلك الإبل، ومع ذلك خاض أسفاره بتفرد وبكور ليس له مثيل بين رفاقه.

ينتقل الحادرة في البيت الرابع والعشرين من العينية إلى وصف الناقة القوية، فينفتح البيت بعبارة: "تَخِدُ الفَيافِي بالرِّحالِ"، والوخد ضرب من السير السريع، أو أن يرمي بقوائمه كمشي النعام في سرعته، وقوله تخد الفيافي يريد أن هذه الناقة التي أصابها الظلع والهيما، والتي أَذهبت الأسفار شحومها، هي عينها الناقة التي أَصبحت في قوة ونشاط وسرعة في السير، فهي تَخِدُ في سيرها حتى

[1] راجع: التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 230.

[2] النفاخ، أحمد راتب (1980)، ص 172.

[3] ابن ميمون، محمد بن المبارك بن محمد (1999)، المجلد السادس، ص 367.

تشبه النعام وقوائمه التي يعدو بها ويسرع. وهذه الناقة تقطع الفيافي المترامية لا تكل ولا تفتر، وهذا الوصف يتضح من قوله: "وكُلُّها يَعْدُو"، حيث يؤكد قوة سرعتها وعدوها. يبدو الحادرة في العالم الثالث من العينية الفتى السميدع، وهو "الشجاع الجميل، وجعله منخرق القميص، لمعالجته الأسفار"[1]؛ وهو الفتى الذي يقود هذه الناقة النشيطة، إنه: "يَعْدُو بِمُنْخَرِقِ القَمِيصِ سَمَيْدَعِ". وقد فسر الشارح القديم ذلك بقوله: "إن هذه الإبل التي وصفتها تقطع المفاوز مرحولةً، وكل واحد منها يعدو برَجُلٍ، منخرق القميصِ، باذِّ الهيئة، هَمُّهُ مقصورٌ على اكتساب المجد"[2].

يفتخر الحادرة بقوته على ناقته السريعة، وتأتي عبارة: "ومَطِيَّةٍ حَمَّلْتُ رَحْلَ مَطيَّةٍ"، التي تشير إلى أن سرعة الحادرة على الناقة، تفرض عليه أن ينقل أمتعته على ناقة أخرى قوية إذا اشتكت هذه الناقة من الضعف والكلال، فيريد أن يقول: "سِرتُ على إبلي. فكلَّما انحَسَرَ بعيرٌ أو مات أو قام، حَوَّلتُ رَحلَه على بعير آخر"[3]. ثم يعطي وصفًا للمطيَّة القوية الجديدة التي حمَّلها رحل الناقة المجهدة التي أعياها الكلال والضعف والوهن، بأنها ناقة قوية ضامرة، طويلة الظهر قريبة من الأرض: "حَرَجٍ تُنَمُّ من العِثَارِ بِدَعْدَعِ"، أي أنه "ينقل رحل مطية إلى ظهر مطية أخرى ضامرة قوية، إذا عثرت ترتفع من العثار، بهذا القول الذي يكفيها في انتعاشها وإنهاضها وإقالة عثرتها، والمطية القوية هي التي إذا عثرت نهضت سريعًا، بخلاف الضعيفة المتهافتة الركيكة"[4].

يصف الحادرة كلال الناقة وحفا مناسمها وعثارها، ووجع أخفافها حين تلامس الحصا: "وَتَقِي إذا مَسَّتْ مَناسِمُها الحصى وَجَعًا"، ولكنه يفتخر بناقته، التي أعياها من تحملها معه لأسفاره المتكررة، فهي حين تزجرها تنطلق مسرعة دون

[1] اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس (1969)،ص 321.

[2] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 234.

[3] الأخفش الأصغر، أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل (1984)، ص 72.

[4] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 229.

تعب أو خوف: "وأن تُزْجَرْ به تَتَرَفَّعِ". ويفتخر الحادرة بشجاعته وقوته على مواجهة المخاطر التي تتخلل رحلته الموحشة، "ونشعر من فخره هذا أنه ينتقل إلى تصوير رحلة أخرى، غير التي وصفها في أبياته الماضية، فتلك كان فيها في صحبة رفاق له، أما هذه فهو فيها وحيد"[1]. لقد أنهض الحادرة ناقته وحثها على السير والعدو لتتحمل أسفاره، ولم يكتف الحادرة بهذا الوصف، بل صرح بأنه لا يأبى المخاطر في المفاوز، وأنه يمكثُ هو وإبله في الأماكن الوعرة المخيفة التي يهابها الناس لخطورتها وكثرة نوائبها، وجاءت عبارة: "قَمِنٍ مِنَ الحِدْثَانِ" لتؤكد أن هذا المكان محفوف بالمخاطر، مليء بالنوائب، والأحداث المهلكات، والحادرة لديه القوة والشجاعة والتفرد في المكوث في الأماكن الوعرة دون فزع، وكأنه يريد أن يقول: "خليقٌ أن يكون الحدثان، بهذا الموضع والوحشة، ونابي المضجع الذي لا يطمئن فيه لخوفه منه"[2].

ويبدو أن البكور ملازمًا للحادرة حتي في إقامته وإبله في الأماكن المفزعة، وهذا يتبدى من لفظة: "عَرَّسْتُهُ"، قال الشارح القديم: "عَرَّسته جواب قوله "ومُناخٍ"، والتعريس: هو النزول صبحًا. العَرِسُ: هو الشجاع الذي يلزم مكانه في القتال فلا يبرح"[3]. لقد وصف الحادرة نفسه بالقوة والشجاعة، وأكد فرط شجاعته قوله: "وَوِسادُ رأَسي ساعدٌ"، وهو تعبير جميل، حيث جعل من ذراعه وسادة لرأسه ينام عليها في هذا المكان المخيف الذي لا يطمئن فيه الإنسان لخوفه منه: "نابِي المَضْجَعِ". إن الحادرة ينام نوما عميقا ويستقر في هذا المكان على الرغم من أنه محفوف بالمخاطر والنوائب، ويعود ليصف ذراعه، الذي صنع منه وسادة لنومه العميق

[1] النويهي، محمد (1966)، الجزء الأول، ص 288.

[2] الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (1920)، ص 62.

[3] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 237.

والمستقر في هذا المكان المخيف، بأنه ساعد مكتنز باللحم متصلب، قوي العضلات، وليس ثمينًا ولا مترهلًا. والحادرة يفتخر بأن "عروق يده لم تمتلئ من الدم، لأن عروق يد الشيخ تمتلئ دمًا، وعروق يد الشاب تمتلئ شدةً وقوةً"[1]. أو بالأحرى: لم تمتلئ وتنتفخ عروقه، كما تمتلئ عروق من جاوز الشباب وشاخ.

يفتخر الحادرة بجريان دم الشباب والقوة في عروق ساعده؛ حيث وصف نفسه بأنه أناخ وعرس وتوسد ساعده القوي، وهجع هجعة، فلما نهض وجد أن ساعده قد خدر، حتى كأنه قد بان، غير أنها كانت هجعة قصيرة في فترة زمنية قصيرة، لم يتقلب فيها عن حال توسده، فلهذا خُدِرَ ساعده. ويطالعنا "عبدالله الطيب" بأن" قوله قد بان مني نوع من أصداء بكور سمية وبينها مع علاقة قلبية بها. والحمرة من ألوان هوادج الظعائن"[2]. ربط الطيب بين بكور سمية وبين حركة الظعائن التي غالبًا تظعن في وقت البكور. لقد أشار الحادرة في وصف ساعده الذي توسده، بأنه احتبس فيه الدم بعدما رفع رأسه من عليه، ولون هذا الدم أحمر وفيه فتور: "فَرَفَعْتُ عنه وهو أَحْمرُ فاترٌ"، أي "رفعت رأسي عن الساعد، وقد احمرَّ وخَدِرَ، فصار في حكم البائن مني، غير أنه كان متصلًا بي. وإنما كشف بهذا الكلام أنه وإن لم يكن فَعَلَ ما فَعَلَ مطمئنًا، فغيرُهُ لا يجسر على توهمه"[3].

نهض الحادرة من نومته، وأنهض ناقته من مكان إناختها، ليستأنف رحلته، فسرعان ما نهضت معه ناقته، ثم رأى في آثار مبركها ومكان نومها آثارًا كأنها أفاحيص القطا، وهو الأثر الذي تركته ثفنات الناقة حين بركت على الأرض، وثفنات الناقة هي الأجزاء التي تلمس الأرض مثل ذراعها وركبتها، والحادرة يشبه آثار ناقته القوية التي لمست الأرض بآثار أفاحيص القطا، وهي الحفر الصغيرة التي

[1] الأخفش الأصغر، أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل (1984)، ص 73.

[2] الطيب، عبدالله (1992)، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص 331.

[3] التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (1987)، الجزء الأول، ص 239.

يحفرها طائر القطا ليضع بيضه فيها ثم يهجع عليها ويرقد. ومغزى الحادرة من هذا التشبيه أنه يصف ناقته بالنجابة والأصالة وكرم ونقاء سلالتها، "فآثارها آثار خفيفة وهذه أمارة النجابة عندهم"[1]. اتسمت ناقة الحادرة بالأصالة وبصفات أخرى رائعة، أو على حد تعبير "محمد النويهي": "فالذي يعنيه الحادرة، هو أن هذه الناقة الأصيلة، على كبر حجمها، لا تترك على الأرض حين تبرك أثرًا، أكبر مما يتركه هذا الطائر الصغير، حين يحفر حفرًا صغيرة يضع فيها بيضه، وهو يحفرها برجليه وصدره، ويحفرها ضحلة غير عميقة"[2]. لقد برع الحادرة في إضفاء هذه الصفات على ناقته حتى يلصق بها السبق والبكور والتفرد، مثلما امتلكه قومه من قبل تارة، وامتلكه هو مع رفاقه ورهطه تارة أخرى.

يفتخر الحادرة بذعلبته السريعة وإنما سميت الناقة بالذعلبة تشبيها لها بالنعامة في السرعة والنشاط والخفة، وتلك الناقة تخب، أي: تعدو عدوًا سريعًا في سيرها، "ولقد ردنا إلى ما بدأ بها إذ قال: "بكرت سمية بكرة فتمتع"، بمقاله "ومتاع ذعلبة" – والذعلبة الناقة السريعة. وإن كانت قلوصًا شابة فذلك أسرع لها. وقد يعلم القارئ .... أن العرب ربما كَنت بالقلوص عن المرأة – فصلة متاع ذعلبة، على هذا بقوله "بكرت سمية بكرة فتمتع" واضحة"[3]. وإن كانت الناقة بهذه الصفات، فإنها تحمل على متنها فتى ماض العزيمة مندفع ومتفرد في أسفاره، مرة مع رفاقه، وأخرى من غير رفاقه. والحادرة يختتم عينية بهذا البيت الذي وصف فيه نفسه بأنه راكب خفيف على ناقة خفيفة تعدو وتسرع به.

(6)

[1] أبو موسى، محمد محمد (2012)، ص 232.

[2] النويهي، محمد (1966)، الجزء الأول، ص 291.

[3] الطيب، عبدالله (1992)، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص 331.

اضطلعت هذه الدراسة بمعاينة دال البكور في عينية الحادرة، وقد تم تقسيم العينية إلى ثلاث مقاطع شعرية شغل المقطع الأول من البيت الأول إلى البيت الثامن، واحتل المقطع الثاني من البيت التاسع إلى البيت الخامس عشر، وشمل المقطع الثالث من البيت السادس عشر إلى البيت الواحد والثلاثين. لقد شكلت هذه المقاطع الثلاثة عوالم ثلاثة أيضًا، هي عالم سمية ورحيلها وعالم الفخر القبلي وعالم الفخر الفردي. ولعب دال البكور دورًا مفصليًا في تلك العوالم الثلاثة حيث ربط بينها من خلال عملية متواشجة تشير إلى أن دال البكور كان ملتصقًا بسمية منذ رحليها في البكور، وكان ملتصقًا، أيضًا، بالفخر القبلي ووصف قومه بصفات الطهارة الأولى والعفاف، والحفاظ على المحارم، وأنهم أهل مجد ومنعة، وكلها دوال تميل إلى البكور، والبكارة الأولى والسبق والتقدم في المعالي والمحامد. وانبثق دال البكور بقوة في الفخر الذاتي الذي اصطحبه الحادرة مع رفاقه الذين يتسابقون إلى تناول لذاتهم وقت البكور، وكان البكور علامة من علامات كرمه في إغاثة الجوعى والمحتاجين، وعلامة تشير إلى تفرده وتفرد إبله في السير والسبق. لقد كان البكور، بعبارة أخرى، محورًا تفسيريًا / تأويليًا في عينية الحادرة.

ببليوجرافيا

- **الأخفش الأصغر، أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل (1984).**

كتاب الاختيارين، تحقيق فخر الدين قباوة، الطبعة الثانية (لبنان، بيروت: مؤسسة الرسالة).

- **الأصفهاني، أبوالفرج علي بن الحسين (2008).**

كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، المجلد الثالث، الطبعة الثالثة (لبنان، بيروت: دار صادر).

- **الأصمعي، عبد الملك بن قُرَيْب (1980).**

كتاب فحولة الشعراء، تحقيق المستشرق: ش. توري، تقديم: صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية (لبنان، بيروت: دار الكتاب الجديد).

- **الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (1920).**

شرح ديوان المفضليات، عني بطبعه ومقابلة نسخه وتذيله بحواشي وروايات لعدة لغويين وعلماء: كارلوس يعقوب لايل (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، علي نفقة كلية أُكْسفُرْد).

- **التبريزي، يحيى بن علي الخطيب (1987).**

شرح اختيارات المفضل، تحقيق: فخر الدين قباوة، الجزء الأول، الطبعة الثانية (لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية).

- **حسين، عبد الكريم محمد (2011).**

التكوين الجمالي في قصيدة الحادرة الذبياني، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد الثالث والرابع (دمشق: جامعة دمشق).

- ابن جعفر، أبو الفرج قدامة (بدون تاريخ).

نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي (لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية).

- الجمحي، محمد بن سلام (1980).

طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، السفر الأول (جدة: دار المدني).

- الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (1979).

المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، الطبعة السادسة (القاهرة: دار المعارف).

- الطيب، عبد الله (1992).

المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الجزء الرابع، القسم الثاني: في الأغراض والأساليب (السودان، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر).

- المؤدب، محمد الأمين (2013).

دراسة نصية في عينية الحادرة الذبياني، ضمن كتاب: بلاغة النص التراثي، مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف: محمد مشبال (مصر، الأسكندرية: دار العين للنشر).

- المعري، أبو العلاء (1993).

رسالة الغفران، تحقيق وشرح: عائشة عبد الرحمن، الطبعة التاسعة (القاهرة: دار المعارف).

- أبو موسى، محمد محمد (2012).

قراءة في الأدب القديم، الطبعة الرابعة (القاهرة: مكتبة وهبة).

- ابن ميمون، محمد بن مبارك بن محمد (1999).

منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق وشرح: محمد نبيل طريفي، المجلد السادس، الطبعة الأولى (لبنان، بيروت: دار صادر).

- ناصف، مصطفى (1992).

صوت الشاعر القديم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).

- النفاخ، أحمد راتب (1980).

مختارات من الشعر الجاهلى، اختارها وعلق عليها: أحمد راتب النفاخ (دمشق: مكتبة دار الفتح).

- النويهي، محمد (1966).

الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، الجزء الأول (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر).

- اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس (1969).

ديوان شعر الحادرة، حققه وعلق عليه: ناصر الدين الأسد، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس عشر، الجزء الثاني (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية).

- اليعقوبي، أحمد بن أبو يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (2010).

تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، المجلد الأول، الطبعة الأولى (لبنان، بيروت: شركة الأعلمي للمطبوعات).